القناعة

الخطبة الأولى :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي شَرَحَ صُدُورَ الْمُؤْمِنِينَ لِلطَّاعَةِ، وَأَشْهَدُ أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَفَّقَ أَوْلِيَاءَهُ لِلرِّضَا وَالتَّسْلِيمِ وَالْقَنَاعَةِ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَصَفِيُّهُ وَخَلِيلُهُ، صَاحِبُ الْحَوْضِ وَالشَّفَاعَةِ، الَّذِي حَثَّ عَلَى الزُّهْدِ وَالْقَنَاعَةِ، وَحَذَّرَ مِنَ الْحِرْصِ وَالْإِضَاعَةِ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيماً كَثِيرًا إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ. أَمَّا بَعْدُ:

فأوصيكم .... فَإِنَّهُ مَنِ اتَّقَى اللهَ وَقَاهُ، وَمَنْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ كَفَاهُ.

عن عَمرُو بنِ عوفٍ المُزنيِّ ﵁:أنَّ رَسولَ اللَّهِ ﷺ بَعَثَ أَبَا عُبَيْدَةَ بنَ الجَرَّاحِ إلى البَحْرَيْنِ يَأْتي بجِزْيَتِهَا،

وكانَ رَسولُ اللَّهِ ﷺ صالَحَ أَهْلَ البَحْرَيْنِ، وأَمَّرَ عليهمُ العَلَاءَ بنَ الحَضْرَمِيَّ، فَقَدِمَ أَبُو عُبَيْدَةَ بمَالٍ مِنَ البَحْرَيْنِ، فَسَمِعَتِ الأنْصَارُ بقُدُومِ أَبِي عُبَيْدَةَ، فَوَافَتْ صَلَاةَ الصُّبْحِ مع النبيِّ ﷺ فَلَمَّا صَلَّى بهِمُ الفَجْرَ انْصَرَفَ، فَتَعَرَّضُوا له، فَتَبَسَّمَ رَسولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ رَآهُمْ، وقالَ: أَظُنُّكُمْ قدْ سَمِعْتُمْ أنَّ أَبَا عُبَيْدَةَ قدْ جَاءَ بشيءٍ؟ قالوا: أَجَلْ يا رَسولَ اللَّهِ، قالَ: فأبْشِرُوا وأَمِّلُوا ما يَسُرُّكُمْ، فَوَاللَّهِ لا الفَقْرَ أَخْشَى علَيْكُم، ولَكِنْ أَخَشَى علَيْكُم أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا كما بُسِطَتْ على مَن كانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كما تَنَافَسُوهَا وتُهْلِكَكُمْ كما أَهْلَكَتْهُمْ. خ.

عباد الله: إِنَّ مِنْ كَمَالِ الْعُبُودِيَّةِ لِلَّهِ تَعَالَى، وَمِنْ تَمَامِ الْإِيمَانِ بِاللهِ رَبًّا، وَالرِّضَا بِهِ سُبْحَانَهُ رَازِقًا وَقَاسِمًا:

أَنْ يَعْلَمَ الْمُسْلِمُ أَنَّ النَّفْعَ وَالضَّرَّ، وَالْخَيْرَ وَالشَّرَّ؛ بِيَدِ اللهِ جَلَّ فِي عُلَاهُ، وَأَنَّهُ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَى، وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعَ، وَأَنَّهُ لَا يَنْفَعُ صَاحِبَ الْغِنَى غِنَاهُ، وَلَا يَبْلُغُ بِالْعَبْدِ مُنَاهُ: إِلَّا اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى (اللهمَّ لا مانِعَ لمِا أعطَيتَ ولا مُعطِيَ لمِا منَعتَ ولا يَنفَعُ ذا الجَدِّ مِنكَ الجَدُّ).

وَلَقَدْ أرادَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ تَكُونَ الدُّنْيَا دَارَ امْتِحَانٍ وَاعْتِبَارٍ، وَالْآخِرَةُ دَارَ جَزَاءٍ وَقَرَارٍ، وَلَمْ يَجْعَلِ الدُّنْيَا دَارَ كَرَامَةٍ، وَلَوْ كَانَتْ كَذَلِكَ لَكَانَ أَسْعَدَ النَّاسِ بِهَا الْأَنْبِيَاءُ وَالْأَوْلِيَاءُ، وَالصَّالِحُونَ وَالْأَتْقِيَاءُ، بَلْ جَعَلَهَا سُبْحَانَهُ دَارَ فِتَنٍ وَشُرُورٍ، وَقَنْطَرَةَ عُبُورٍ لِدَارِ الْآخِرَةِ دَارِ الْأَفْرَاحِ وَالسُّرُورِ، فَالسَّعِيدُ حَقَّ السَّعَادَةِ مَنْ سَعِدَ فِي الْآخِرَةِ، وَالشَّقِيُّ شَرَّ الشَّقَاءِ مَنْ شَقِيَ فِيهَا .

وَمِنْ هَوَانِ الدُّنْيَا عَلَى اللهِ تَعَالَى: أَنَّهُ سَاقَهَا لِلْكُفَّارِ وَالْفُجَّارِ وَتَرَكَهُمْ يَتَمَتَّعُونَ بِهَا، وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِحَقَارَتِهَا لَدَيْهِ وَلِهَوَانِ هَؤُلَاءِ عَلَيْهِ، قال ﷺ «لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ: مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ» التِّرْمِذِيُّ.

ولَمَّا كَانَتِ الدُّنْيَا بِهَذَا الْهَوَانِ عَلَى اللهِ؛ لَمْ يَغْتَرَّ بِهَا الصَّالِحُونَ، وَلَمْ يَطْلُبُوا مِنْهَا الْمَزِيدَ، بَلْ قَنَعُوا مِنْهَا بِحَدِّ الْكَفَافِ، وَأَخَذُوا مِنْهَا بُلْغَتَهُمْ بِغَيْرِ إِسْرَافٍ، وَقَدْ عَدَّهَا النَّبِيُّ ﷺ كَمَقِيلِ قَائِلٍ، أَوْ سَرَابٍ زَائِلٍ، وَأَعْطَى وِجْهَتَهُ اللهَ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ: فَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: اضْطَجَعَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى حَصِيرٍ فَأَثَّرَ فِي جِلْدِهِ، فَقُلْتُ: بِأَبِي وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ لَوْ كُنْتَ آذَنْتَنَا فَفَرَشْنَا لَكَ عَلَيْهِ شَيْئًا يَقِيكَ مِنْهُ،

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «مَا أَنَا وَالدُّنْيَا، إِنَّمَا أَنَا وَالدُّنْيَا كَرَاكِبٍ اسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ، ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا» أَحْمَدُ وغيرُه.

وَكَانَ ﷺ يَدْعُو اللهَ أَنْ يَجْعَلَ رِزْقَهُ وَرِزْقَ أَهْلِ بَيْتِهِ إِلَى حَدِّ الْكِفَايَةِ؛ فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ ﷺ: «اللَّهُمَّ اجْعَلْ رِزْقَ آلِ مُحَمَّدٍ قُوتًا» أي: اكْفِهم من القوتِ بما لا يُرهِقُهم إلى ذُلِّ المسألةِ، ولا يكونُ فيه فُضولٌ تبعَثُ على التَّرفُّهِ والتَّبسُّطِ في الدُّنيا. والحديث في خ. م.

بل جعَلَ ﷺ الْقَنَاعَةَ بِالْكَفَافِ مِنْ أَسْبَابِ الْفَوْزِ وَالْفَلَاحِ، قال ﷺ: «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ، وَرُزِقَ كَفَافًا، وَقَنَّعَهُ اللهُ بِمَا آتَاهُ». م.

وَعَلَى نَهْجِهِ ﷺ سَارَ أَصْحَابُهُ الْكِرَامُ؛ إِذْ رَضُوا بِمَا قَسَمَ اللهُ لَهُمْ، وَلَمْ يُنَافِسُوا أَحَدًا فِي الدُّنْيَا بَلْ كَانَ هَمُّهُمُ الآخِرَةَ؛

فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁ أَنَّهُ مَرَّ بِقَوْمٍ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ شَاةٌ مَصْلِيَّةٌ، فَدَعَوْهُ، فَأَبَى أَنْ يَأْكُلَ، وَقَالَ:(خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الدُّنْيَا وَلَمْ يَشْبَعْ مِنْ خُبْزِ الشَّعِيرِ) خ.

وَهُوَ الَّذِي رَوَى لَنَا وَصِيَّةَ النَّبِيِّ ﷺ بِالْقَنَاعَةِ فَقَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «يَا أَبَا هُرَيْرَةَ كُنْ وَرِعًا؛ تَكُنْ أَعْبَدَ النَّاسِ، وَكُنْ قَنِعًا؛ تَكُنْ أَشْكَرَ النَّاسِ..." الْتِّرْمِذِيُّ وغيره.

وَهَكَذَا كَانَ حَالُ الصَّحَابَةِ رِضْوَانُ اللهِ عَلَيهِمْ: زَاهِدِينَ فِي الدُّنْيَا، رَاغِبِينَ فِي الْآخِرَةِ، رَاضِينَ بِمَا قَسَمَ اللهُ لَهُمْ، قَانِعِينَ بِمَا لَدَيْهِمْ مِنْ قُوتٍ وَكَفَافٍ.

عِبَادَ اللهِ: إِنَّ نَظْرَةً فَاحِصَةً لِوَاقِعِنَا الْمَعِيشِ لَتُبْدِي لَنَا مَا وَصَلَ إِلَيْهِ حَالُ النَّاسِ الْيَوْمَ -إِلاَّ مَنْ عَصَمَ اللهُ وَرَحِمَ-

مِنَ اللَّهَثِ وَرَاءَ سَرَابِ الدُّنْيَا، وَالِاسْتِكْثَارِ مِنْ لَذَّاتِهَا، وَالتَّنَافُسِ فِي شَهَوَاتِهَا، وَالْمُسَارَعَةِ إِلَى التَّبَاهِي بِمَا فِيهَا مِنْ أَمْوَالٍ وَأَرْصِدَةٍ وَقُصُورٍ، وَالتَّكَالُبِ عَلَى الْجَاهِ وَالْمَنَاصِبِ وَحُبِّ الشُّهْرَةِ وَالظُّهُورِ!! فَهَلْ هَذَا إِلَّا انْغِمَاسٌ فِي حُبِّ الدُّنْيَا وَغَفْلَةٌ عَنِ الْآخِرَةِ، وَتَرْكٌ لِجَوْهَرِ الْحَيَاةِ وَتَمَسُّكٌ بِالْقُشُورِ؟! فَمَا لِهَذَا خُلِقْنَا، وَلَا بِهَذَا أُمِرْنَا! حَتَّى إِنَّكَ لَا تَكَادُ تَرَى مَنْ يَقْنَعُ بِمَا آتَاهُ اللهُ مِنَ الْمَالِ أَوِ الزَّوْجَةِ أَوِ الْوَلَدِ أَوِ الْجَاهِ أَوِ الْمَنْصِبِ، بَلْ كَثِيرٌ مِنَ النُّفُوسِ إِلَى الْمَزِيدِ مُشْرِفَةٌ، وَمِنَ الْعَوَزِ وَالْفَقْرِ مُتَخَوِّفَةٌ، فَلَا تَشْبَعُ مِنْ مُرَادٍ، وَلَا تَتَفَكَّرُ فِي مَعَادٍ، وَهِيَ بِرَغَائِبِهَا تَهِيمُ فِي كُلِّ وَادٍ، لَا تَقْنَعُ بِقَلِيلٍ، وَلَا تَشْبَعُ مِنْ كَثِيرٍ، فَلَا أَصْحَابُ الْمَلَايِينِ قَنِعُوا بِمَلَايِينِهِمْ،

وَلَا الْمُلَّاكُ وَأَهْلُ الْعَقَارَاتِ وَالثَّرَوَاتِ اكْتَفَوْا بِمَا عِنْدَهُمْ، بَلْ لِسَانُ حَالِهِمْ يُرَدِّدُ دَائِماً: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ؟! فَمَتَى يَشْبَعُ ابْنُ آدَمَ؟! لَقَدَ عَلِمَ كُلُّ عَاقِلٍ أَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَشْبَعُ مِنَ الدُّنْيَا –وَلَوْ حِيزَتْ لَهُ بِحَذَافِيرِهَا -حَتَّى يَمُوتَ، وَإِنَّهُ لَيَمُوتُ دُونَ أَنْ تَتَحَقَّقَ أَمَانِيُّهُ وَآمَالُهُ؛ قَالَ ﷺ «لَوْ كَانَ لِابْنِ آدَمَ وَادِيَانِ مِنْ مَالٍ لَابْتَغَى وَادِيًا ثَالِثًا، وَلَا يَمْلَأُ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إِلَّا التُّرَابُ، وَيَتُوبُ اللهُ عَلَى مَنْ تَابَ» خ.م.

فمَنِ ابْتَغَى السَّلَامَةَ لِنَفْسِهِ، وَالنَّجَاةَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ فَلْيَأْخُذْ مِنَ الدُّنْيَا مَا يَكْفِيهِ، وَلْيَقْنَعْ بِمَا رَزَقَهُ اللهُ تَعَالَى مِمَّا بَيْنَ يَدَيْهِ؛ فَإِنَّ غِنَى النَّفْسِ هُوَ الْغِنَى الْحَقِيقِيُّ، وَلَيْسَ بِمَا أُوتِيَ مِنْ حُظُوظِ الدُّنْيَا؛

قَالَ ﷺ «لَيْسَ الْغِنَى عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ، وَلَكِنَّ الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ».خ.م. (اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ) بَارَكَ اللهُ لِي وَلَكُمْ فِيمَا رَزَقَنَا، وَقَنَّعَنَا بِمَا آتَانَا...

الخطبة الثانية

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ... أَمَّا بَعْدُ: فيا إِخْوَةَ الْإِيمَانِ:

القناعةُ هي الرِّضا بما دونَ الكفايةِ، وتَركُ التَّشوُّفِ إلى المفقودِ، والاستغناءُ بالموجودِ .

القناعةُ هي الرِّضا بما أعطى اللهُ ، وعلى هذا فلْيَنْظُر المرءُ فِي أُمُورِ الدُّنْيَا إِلَى مَنْ هُوَ دُونَهُ فِيهَا؛ لِيَعْرِفَ نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْهِ وَلَا يَحْتَقِرَهَا؛ قَالَ ﷺ «انْظُرُوا إِلَى مَنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ، وَلَا تَنْظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَكُمْ، فَهُوَ أَجْدَرُ أَنْ لَا تَزْدَرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ» م.

وَأَمَّا فِي الدِّينِ فَلْيُنَافِسْ مَنْ يُنَافِسُهُ فِيهِ؛ فَإِنَّهُ سِبَاقٌ مَحْمُودٌ فِي الْمَيْدَانِ، وَسَيْرٌ إِلَى الْجِنَانِ، وَمُسَارَعَةٌ يُحِبُّهَا اللهُ وَيَرْضَاهَا فِي كُلِّ آنٍ (وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ).

وَلْيَنْظُرِ الْعَبْدُ كذلكَ إِلَى مَا عِنْدَهُ مِنْ نِعَمٍ لا تُعَدُّ وَلَا تُحْصَى، وَلْيُقَارِنْهَا بِحَالِ كَثِيرٍ مِنْ خَلْقِ اللهِ: يَجِدْ فَضَلَ اللهِ عَلَيْهِ كَبِيرًا: نِعَمٌ مِنْ فَوْقِهِ، وَنِعَمٌ مِنْ تَحْتِهِ: إِيمَانٌ وَأَمَانٌ، وَأَمْنٌ فِي الْأَوْطَانِ، وَأَمْوَالٌ وَأَوْلَادٌ، وَآلَاتٌ وَأَدَوَاتٌ، وَخَدَمٌ وَحَشَمٌ مع العافيةِ ، أَلَا يَدْعُونَا ذَلِكَ لِلشُّكْرِ وَالْقَنَاعَةِ؟!

قال ﷺ «مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا فِي سِرْبِهِ -أَيْ: فِي نَفْسِهِ أَوْ قَوْمِهِ- مُعَافًى فِي جَسَدِهِ، عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ: فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا» التِّرْمِذِيُّ. فَكَمْ مِنَّا مَنْ يَعِيشُ عِيشَةَ الْمُلُوكِ، وَيَحْيَا حَيَاةَ الْأُمَرَاءِ، وَهُوَ لَا يَدْرِي!!

قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ ﵁ وَقَدْ سَأَلَهُ رَجُلٌ: أَلَسْنَا مِنْ فُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ؟ أَلَكَ امْرَأَةٌ تَأْوِي إِلَيْهَا؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: أَلَكَ مَسْكَنٌ تَسْكُنُهُ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَأَنْتَ مِنَ الْأَغْنِيَاءِ، قَالَ: فَإِنَّ لِي خَادِمًا، قَالَ: فَأَنْتَ مِنَ الْمُلُوكِ . م.

ولْيَعْلَمِ الْعَبْدُ – أَيْضاً– أَنَّ اللهَ يُحَاسِبُهُ عَلَى مَالِهِ مِنْ أَيْنَ؟ وَإِلَى أَيْنَ؟ فَحَلَالُهُ حِسَابٌ، وَحَرَامُهُ عَذَابٌ، وَلَكِنَّهُ لَا يُلَامُ عَلَى قَدْرِ الْحَاجَةِ وَالْكِفَايَةِ، قَالَ ﷺ «يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ أَنْ تَبْذُلَ الْفَضْلَ خَيْرٌ لَكَ، وَأَنْ تُمْسِكَهُ شَرٌّ لَكَ، وَلَا تُلَامُ عَلَى كَفَافٍ» م.

وَمَنْ جَعَلَ الدُّنْيَا هَمَّهُ: أَتْعَبَ نَفْسَهُ وَأَضْنَى غَيْرَهُ، وَأَسْخَطَ رَبَّهُ، وَمَنْ جَعَلَ الْآخِرَةَ هَمَّهُ: أَرَاحَ نَفْسَهُ وَغَيْرَهُ، وَأَرْضَى رَبَّهُ؛

قال ﷺ «مَنْ كَانَتِ الْآخِرَةُ هَمَّهُ: جَعَلَ اللَّهُ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ، وَجَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ، وَمَنْ كَانَتِ الدُّنْيَا هَمَّهُ: جَعَلَ اللَّهُ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَفَرَّقَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا قُدِّرَ لَهُ» التِّرْمِذِيُّ .

هِيَ الْقَنَاعَةُ فَالْزَمْهَا تَعِشْ مَلِكاً لَوْ لَمْ يَكُنْ مِنْكَ إِلَّا رَاحَةُ الْبَدَنِ

وَانْظُرْ لِمَنْ مَلَكَ الدُّنْيَا بِأَجْمَعِهَا هَلْ رَاحَ مِنْهَا بِغَيْرِ الْقُطْنِ وَالْكَفَنِ

ثم صلوا ...